

عباس الزين الطيب (سادن مكتبة السودان)

دبي-الإمارات العربية المتحدة

د. محمد صلاح الدين محمد مضوي

المستخلص:

تعتبر مكتبة السودان واحدة من أهم المكتبات المتخصصة في الدراسات السودانية على مستوى العالم، وذلك لما تحتويه من كنوز معرفية قيمة ونادرة ومتنوعة. تم تأسيسها في بدايات ستينيات القرن الماضي، وذلك لتلبية احتياجات الباحثين وأساتذة الجامعات وطلاب الدراسات العليا المهتمين بدراسة المجتمع السوداني في مختلف جوانبه. وقد تميزت المكتبة بدور مركزي ورائد في رفد المجتمع العلمي والبحثي في السودان بما يحتاجه من مصادر للمعلومات، كما امتد أثرها لخارج السودان، حيث ظلت المكتبة مقصداً للباحثين وطلاب الدراسات العليا الأجانب. وتمتاز المكتبة بتنوع مجموعاتها التي تضم الكتب والصحف والمجلات والتقارير الحكومية والخرائط والرسائل الجامعية. ظلت مكتبة السودان تلعب دوراً مهماً في توثيق التراث الفكري السوداني، حيث حرصت على القيام مهام ومسؤوليات ومبادرات المكتبة الوطنية، قبل إنشائها مؤخراً. وبذلت المكتبة جهداً كبيراً لسد الفراغ وتلبية احتياجات الباحثين، وقد نجحت في ذلك بشكل كبير، حيث كونت مجموعات تعتبر الأغنى والأشمل فما يخص الدراسات السودانية.

يشكل العاملون في المكتبة ركناً مهماً ورئيساً بما يقدمون من خدمات لروادها. يستعرض هذا المقال سيرة ومسيرة واحداً من أقدم العاملين في مكتبة السودان وأطولهم خدمة حيث استمرت خدمته لأكثر من نصف قرن، حيث يتحدث المقال عن الفقيه عباس الزين الطيب (سادن مكتبة السودان) الذي أمضى سنوات طويلة في خدمة مكتبة السودان وروادها، حيث عرف بين رواد المكتبة بالإخلاص والوفاء والتفاني في خدمة رواد المكتبة والمحافظة على مقتنياتها ومجموعاتها. كما تميز بمعرفته الدقيقة بالمجموعات وخبائها، حيث كان هو العون الرئيس لعدد كبير من مستخدمي المكتبة. كما عرف كونه عالماً من

أعلام المكتبة والحريصين عليها والساعين لتطورها ونمائها. يستعرض المقال مراحل عمل الفقيه عباس الزين الطيب في المكتبة ودوره ومحفته لعمله، مع التعرض للتقدير والثناء والعرفان الذي كان يلاقيه من رواد المكتبة من داخل السودان وخارجه، ويأتي هذا المقال عرفاناً بفضلته وتقديرًا لما قدمه من خدمات جليلة، ويمكن أن يندرج هذا المقال في إطار فئة السير والتراجم.

Abstract:

The Sudan Library, of the University of Khartoum, is considered one of the most specialized libraries to serve the Sudanese studies in the world. That is mainly due to its valuable, rare and diverse collection. It was established in the early 1960's, in order to meet the needs of researchers, and post graduate students, who are interested in Sudanese Studies. The library is known for its contribution to provide the scientific and research community in Sudan with the needed sources of information. Sudan library remained a destination for researchers from different parts of the world. The library collection includes books, newspapers, magazines, journals, governmental reports, conference proceedings, maps and postgraduate dissertations. The Library continues to play a central role in maintaining the Sudan's intellectual heritage. Moreover, the library assumes, for long time, responsibilities of the National Library, before its recent establishment. The library succeeded greatly in filling the void and created collection that is considered the world's richest and most comprehensive in relation to Sudanese Studies. The library staff constitutes an important and main pillar of the services they provide to its patrons. This article reviews the biography of one of the oldest and longest-serving workers in the Sudan Library, Mr Abbas Al Zain El Tayeb, with service lasted for more than half a century. A man who characterized by sincerity, loyalty and dedication in serving the library's users. In addition, he was known

by the keenness to preserve the library's holdings and collections. He was also distinguished by his unique knowledge of the library and its collections. The article reviews the professional career of the late Abbas Al-Zain Al-Tayeb in the library. This article was written and driven by appreciation, praise and gratitude to the late Abbas El-Zain El-Tayeb.

مقدمة:

حينما طلب إلى الكتابة حول الأخ عباس الزين الطيب، ترددت كثيراً في تلبية الطلب، لأنني وبكل صدق لست الأقرب للأخ عباس الزين الطيب، ولا الأعرف به، وخشيت أن يأتي ما أكتب دون مقام الرجل ومكانته في نفسي وفي نفوس الكثير من محبيه وزملائه وأصدقائه، ولكنني كنت متأكداً أنني أكن للرجل محبة ومعزة خاصتين، فقد عملت معه وتعلمت منه وتعرفت إليه عن قرب. كل ذلك شجعني أن اكتب ما يجيش في خاطري، وكلي ثقة أن من حولي من أهل وأصدقاء وزملاء الفقيد سيجدون لي ألف عذر في تقصيري في إعطاء الرجل حقه ومكانته، فهو في مقام رفيع عند الكل، ونسأل الله أن يكتب له مقاماً عالياً في مقعد صدق عند مليك مقتدر. لا اسمي ما كتبته ورقة علمية، إنما هي أقرب لتداعي الشاعر بلا قيود، أكتبها بحب وبإخلاص وأتمنى أن تعبر عن بعض ما أكنه ويكنه الزملاء والأهل والأصدقاء للفقيد الراحل من محبة وتقدير. وحتى يتعرف القارئ غير الملم بطبيعة عمل الفقيد في مكتبة السودان فقد اخترت أن أبدأ الورقة بالتعريف بمكتبة السودان ومكانتها بالنسبة للباحثين والأساتذة وطلاب الدراسات العليا المهتمين بالدراسات السودانية، آملاً أن يلقي ذلك بعض الضوء على ما كان يقوم به الراحل الفقيد من جهد عظيم ومقدر في عون رواد المكتبة وطلاب العلم من داخل وخارج السودان.

مكتبة السودان كنز السودان المعرفي:

نشأت مكتبة جامعة الخرطوم مع بدايات الجامعة، وعرفت أولاً بمكتبة دوجلاس نيو بولد السكرتير الإداري لحكومة السلطة الاستعمارية الذي تبرع بمجموعة قيمة من مكتبته الخاصة وكان جلها عن السودان وأفريقيا. وفقاً للمرحوم البروفيسور قاسم عثمان نور، فإنه وفي العام 1945م أهدى السير دوجلاس نيو بولد السكرتير الإداري لحكومة السودان (1939-1945م)

مجموعته الخاصة ومجموعة مكتب السكرتير الإداري إلى مكتبة كلية غردون (آنذاك) وبلغ عدد مجلداتها حوالي خمسة عشر ألف مجلد وقد أطلق على مكتبة الكلية (مكتبة نيو بولد). وحتوت تلك المجموعة الكثير من كتب السودان. لكن نواة تلك الكتب والتقارير تشكلت وتكونت بالقاهرة وبالتحديد في تلك الوحدة التي أنشأها الرائد ريجالند ونجت والذي أصبح فيما بعد حاكماً عاماً للسودان (1900-1916م) وذلك عندما كان ضابطاً في الجيش المصري (1883م) واختير ليؤسس قلم المخابرات والذي أوكل إليه جمع المعلومات والأخبار عن أوضاع السودان توطئة لغزوه فيما يعرف في التاريخ بـ (حملة النيل) وذلك في عام 1898م بقيادة الجنرال كتشنر. واستطاع ونجت خلال تلك الأعوام التي سبقت الغزو وتحرك الجيوش أن يجمع الكثير من التقارير والخرائط والكتابات ويساعد على تهريب بعض الأجانب من الذين كانوا أسرى بأمر درمان أمثال الضابط النمساوي سلاطين باشا. وقد أهدى المستر نيو بولد أيضاً تلك المجموعة القيمة من الكتب والمستندات والخرائط التي جمعها ونجت باشا والتي كانت تعرف لدى الجهات الحكومية باسم «مكتبة السكرتارية»، وهي تلك المجموعة المتخصصة في الشأن السوداني، وكانت تتبع لوحدة استخبارات السودان⁽¹⁾. وقد التفتت مكتبة جامعة الخرطوم ومنذ استلامها لتلك المجموعات لضرورة إنشاء قسم خاص بالدراسات السودانية لسد الفراغ الناجم عن غياب المكتبة الوطنية السودانية آنذاك، وقد شكلت المجموعتان اللتان أهداهما دوجلاس نيوبولد النواة الرئيسية لمكتبة السودان الموجودة حالياً. وبمجرد إنشاء القسم وتعيين الموظفين للقسم بدأت الجهود الدؤوبة والعمل الجاد لجمع وحصر كل ما هو متاح من الأعمال المنشورة عن السودان بغض النظر عن جنسية المؤلف، واهتمت المكتبة كذلك بجمع الأعمال التي ألفها مؤلفون سودانيون في مختلف التخصصات. ونمت بفضل الجهود المتصلة مجموعات مكتبة السودان لتصبح - كما اعتقد أكبر مكتبة متخصصة في الدراسات السودانية داخل وخارج السودان، حيث ضمت الكتب والدوريات والصحف ووقائع المؤتمرات المطبوعات الحكومية والخرائط والرسائل الجامعية. واستمرت مكتبة السودان منذ تأسيسها في تقديم خدمات مميزة للباحثين وطلاب الدراسات العليا وأصبحت قبلة لهم من داخل وخارج السودان.

جاء قرار إنشاء قسم السودان الذي عرف لاحقاً بمكتبة السودان في وقته، لأن إنشاء هذا القسم قد أسهم بشكل ملحوظ في حفظ الجزء الكثير من الإنتاج

الفكري السوداني، ولولا جهود العاملين في القسم، لفقدت المكتبة السودانية الكثير من المؤلفات والمنشورات القيمة التي لا تعوض ولا تقدر بثمن⁽²⁾. في العام 1966 صدر قانون الإيداع السوداني، والذي شكل دفعة قوية لجهود تنمية مجموعات مكتبة السودان حيث جاء قانون الإيداع ليلزم الناشرين السودانيين بإيداع عدد من النسخ عن أي كتاب يصدر عنهم في مكتبة السودان بالإضافة لعدد من المؤسسات الأخرى ذات العلاقة منها دار الوثائق القومية. وقد استفادت مكتبة السودان من القانون أيما استفادة، حيث كانت تخصص جولات منتظمة يقوم بها العاملون في المكتبة للمكتبات ودور النشر للتعرف على الإصدارات الحديثة ومن ثم يقومون بمخاطبة الناشرين للإسراع بإيداع نسخ من الإصدارات في مكتبة السودان.

مجموعات مكتبة السودان:

كما بذلت إدارات المكتبة المتعاقبة جهوداً كبيرة للحصول على أي من الإصدارات التي تقع في دائرة اهتمام مكتبة السودان والتي يصعب الوصول إليها عبر الناشرين، مثل الرسائل الجامعية ووقائع المؤتمرات والتقارير الحكومية والدراسات والأوراق الفنية التي تصدرها الجمعيات والمنظمات الطوعية، وغيرها من مصادر المعلومات المهمة بالنسبة للباحثين. وتمثل الرسائل الجامعية المقدمة للدراسات العليا في الجامعات السودانية وغير السودانية أحد أهم ما يميز مجموعات مكتبة السودان. ويقدر عدد مجموعة الرسائل في مكتبة السودان بما لا يقل عن 25 ألف رسالة ماجستير ودكتوراه منحت من جامعة الخرطوم، والجامعات السودانية، بالإضافة لعدد كبير من الرسائل الجامعية الممنوحة من مختلف جامعات العالم. تعرف الرسائل الجامعية المقدمة لنيل الدرجات العليا أنها من مصادر المعلومات الأولية، لأنها تقدم معلومات أولية أصيلة وتنسب نتائجها للباحث الذي أعد الرسالة، لذلك تعتبر مصدراً لا غنى عنه بالنسبة للباحثين وطلاب الدراسات العليا. وتأتي موثوقية الرسائل الجامعية باعتبار ما تقدمه من معلومات ونتائج تأتي بعد جهد علمي متصل لعدد من السنين، بمنهجية علمية ودراسة متعمقة ومتأنية، كل ذلك يجري تحت الإشراف الأكاديمي الدقيق، يتبع ذلك إجراءات علمية دقيقة يخضع بعدها الباحث للامتحان وتقرر لجنة علمية متخصصة في منح الدرجة العلمية من عدمها. ويعتبر الوصول للأطروحات المقدمة للدراسات العليا أحد أهم التحديات التي

تواجه الباحثين، لمحدودية النسخ التي يتم إنتاجها، حيث ينتج الطالب نسخ لا تتجاوز في عددها أصابع اليدين من الأطروحة. وبذلك يصبح الوصول لتلك الأطروحة تحدياً كبيراً مع أهمية ما تقدمه من معلومات.

استطاعت مكتبة السودان وبفضل الكثير من الجهود والمتابعة أن تحول هذا التحدي لفرصة، فقد بذلت المكتبة جهداً حثيثاً ومكثفاً لجمع الرسائل والأطروحات الممنوحة من كلية الدراسات العليا في جامعة الخرطوم، عبر الاتفاقيات المؤسسية - منذ زمن بعيد بين مكتبة الجامعة وعمادة كلية الدراسات العليا، وضمنت تلك الاتفاقيات إيداع أكثر من نسخة من كل الأطروحات المقدمة لكلية الدراسات العليا في جامعة الخرطوم. وفي نفس الاتجاه سعت مكتبة الجامعة لتقنين الحصول على نسخ من رسائل الدراسات العليا الممنوحة للمبتعثين السودانيين بالجامعات العالمية وذلك عبر اتفاقية مع وزارة الخارجية السودانية بحيث تشرف السفارات والقنصليات السودانية بالخارج على الحصول على نسخ من الأطروحات وإرسالها لوزارة الخارجية، ومنها لمكتبة السودان. كذلك بذلت مكتبة الجامعة جهوداً مقدرة للحصول على تمويل من مؤسسة فورد الأمريكية تم تخصيصه للحصول على نسخ من الأطروحات الجامعية التي قدمت في الجامعات الأمريكية والتي تناولت موضوعات عن السودان أو التي أعدها مبتعثون سودانيون للجامعات الأمريكية.

كذلك وبفضل السمعة الممتازة التي حققتها مكتبة السودان عبر مجموعاتها الشاملة وخدماتها المتميزة، أصبحت المكتبة تتلقى نسخاً عن أطروحات انجزها باحثون غير سودانيون تقديراً لدور مكتبة السودان في مساعدتهم خلال مراحل إعداد دراستهم لنيل الدرجة العلمية. وكذلك يقوم عدد كبير من الباحثين السودانيين بتسليم نسخ من رسائلهم الجامعية لمكتبة السودان لضمان توفرها للباحثين وطلاب الدراسات العليا من داخل وخارج السودان. بذلك نجد أن الرسائل الجامعية الممنوحة من الجامعات غير السودانية من مختلف الدول في العالم قد شكلت إضافة نوعية كبيرة ومقدرة لبقية المجموعات التي تضمها وتوفرها مكتبة السودان. كما شهدت مكتبة السودان جهوداً كبيرة في بناء قاعدة بيانات إلكترونية تضم الرسائل الجامعية، حيث وابتداءً من العام 2003 تم توفير نسخة رقمية من الرسائل الجامعية.

تضم مكتبة السودان بالإضافة للرسائل الجامعية مجموعات متنوعة من المنشورات السودانية النادرة مثل مجموعات الصحف السودانية منذ

الخمسينات والمجلات السودانية وميزانيات حكومة السودان منذ الحكم الإنجليزي، ومجموعات كبيرة من المؤلفات السودانية، بالإضافة لأعداد كبيرة من التقارير الفنية والدراسات والاحصاءات والمطبوعات الحكومية وعدد من الخرائط. كما تمتلك المكتبة مجموعة من المواد المحفوظة في شكل المصغرات الفلمية (المايكروفيش). وعلى صعيد آخر فقد أسهمت مكتبة السودان في توثيق الإنتاج الفكري السوداني، حيث تم إصدار الفهرس المصنف لمجموعة السودان وملاحقه وهو بمثابة الببليوغرافية الوطنية التي تعنى برصد وحصر الإنتاج الفكري السوداني.

شهدت مكتبة السودان تطوراً كبيراً في بداية العام 1995، حيث تم تخصيص مباني منفصلة لمكتبة السودان بمساحات واسعة تتسع لتوسع المكتبة الدائم وتغطي احتياجاتها المستقبلية، وبدأت جهود في حوسبة المكتبة، وتحويل فهارسها لقواعد بيانات إلكترونية تعين الباحثين والعاملين على التعرف على المجموعات بدقة وتسهيل مهمة استرجاع المعلومات وتوفير الكثير من الجهد. ومكتبة السودان بما تذخر به من مجموعات نادرة فإنها تعتبر بمثابة خزانة الإنتاج الفكري السوداني، وتشكل العمود الفقري لذاكرة الوطن، مما يحتم ضرورة الاهتمام بها ودعمها ووضع الخطط التي تكفل لها الموارد المالية اللازمة لتطويرها ومساعدتها للارتقاء بخدماتها ومجموعاتها حتى تحافظ على الثقة التي اكتسبتها عبر العقود، وتزيد من خدمة قطاع التعليم العالي والبحث العلمي في السودان. وهو أمر غاية في الأهمية، ويحتاج لاستقطاب الدعم من المؤسسات الدولية المعنية بالشأن الثقافي مثل منظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم والمنظمات الشبيهة على المستوى الإقليمي.

عباس الزين الطيب، شخص فريد:

قليل من البشر من تظل ذكراه عالقة في أذهان الناس وأن ترتبط ذكراه بتلك المؤسسة بعد تركه للعمل فيها، فطبيعة المؤسسات أن تستمر وتمضي دون توقف ولا التفتات للوراء، حيث تنزع المؤسسات دوماً نحو بناء وتطوير العمليات والخدمات على أساس من المهنية والمؤسسية، بحيث لا تتوقف المؤسسة عن دورها بغياب شخص، وهذا هو المنهج الإداري السليم والمتبع، الذي يضمن عدم توقف أي مؤسسة عن تقديم خدماتها للجمهور، لكن وبرغم كل هذه الاحترازا تـجد هنالك أنواعاً من البشر استطاعوا أن ينحتوا

أسماءهم في ذاكرة المؤسسة بجليل الخدمات التي قدموها، وتفانيهم واخلاصهم ومحبتهم للعمل الذي يقومون به. فقيدنا العزيز/ عباس الزين الطيب من أولئك القلائل الذين خدموا بإخلاص وتفاني ومحبّة مكتبة السودان بجامعة الخرطوم ورواد مكتبة السودان من أساتذة الجامعات والباحثين وطلاب الدراسات العليا من مختلف بقاع السودان ومؤسساته وجامعاته، بل وامتدت علاقاته مع عدد كبير من الباحثين غير السودانيين. كل أولئك الذين جمعهم حبهم للعلم وحرصهم على التحصيل والبحث الأكاديمي قصدوا مكتبة السودان، قبله الباحثين، فالتقوا بساكن المكتبة الفقيد عباس الزين الطيب الذي امتاز بمعرفة فائقة ودقيقة بمجموعات مكتبة السودان اكتسبها من محبته لعمله واخلاصه في خدمة الباحثين والعلماء من رواد المكتبة، ليس هذا فحسب ما حُبب الجميع في الفقيد عباس الزين الطيب، فقد عرف بين الجميع بالعديد من الصفات الحميدة والفريدة، فقد اشتهر ببشاشته وصفاء نيته وابتسامته التي لا تخبو ولا تختفي، فما أن تجتمع به وتتعرف عليه إلا ويأسرك بنبله ودماثة أخلاقه مقرونة بحبه لعمله وحرصه على تقديم كل ما هو ممكن من مساعدة لرواد المكتبة ومستخدميها.

ولد عباس الزين الطيب في (حلة عباس) بالجزيرة الخضراء في العام 1944 ودرس المرحلة الأولية بقرية مقدر في الجزيرة، ثم درس المرحلة الوسطي في الأعوام من 1956 وحتى عام 1960 بمدارس الأحفاد في امدرمان. والتحق الفقيد بمكتبة جامعة الخرطوم في العام 1968 واستمر متفانياً ومخلصاً في خدمة العلم والعلماء لأكثر من نصف قرن، وبالرغم من أن الفقيد قد أحيل للمعاش في العام 2005، إلا أنه ظل يعمل في المكتبة متطوعاً حتى توفاه الله لرحمته في الثاني من مايو 2020، وتم دفنه في مقابر الشيخ حمد النيل بأم درمان⁽³⁾.

ضرب عباس الزين خلال هذه الفترة الطويلة مثلاً للموظف المثالي، فهو لم يكن فقط شديد الالتزام بساعات العمل الرسمية، فقد كان دائماً من أول الواصلين للمكتبة، وآخر المغادرين لها، لكنه وفي كثير من الأحيان كان يواصل عمله إلى ما بعد ساعات العمل الرسمية لمساعدة الباحثين وطلاب العلم، ولو على حساب وقته الخاص.

كان عباس الزين اجتماعياً من الطراز الأول، محباً لكل متواصلاً معهم وكان بحكم عمله يمتاز بشبكة واسعة جداً من المعارف من الطلاب وأساتذة

الجامعات والباحثين ومن الدوائر الحكومية. وكانت له مقدرة ملفتة للاحتفاظ بالأسماء وتذكرها، فكان دائماً ما يسابق المقبل عليه مرحباً به وذاكراً اسمه، ولعل هذا مما يترك أثراً جميلاً لدى رواد المكتبة. وفي المقابل كان عباس الزين يتربع في قلوب زملائه وأصدقائه، يحبونه ويحترمونه ويشهدون له بالوفاء. وكان هو كالعهد به وفيماً لهم يبادلهم حباً بحب، واحتراماً باحترام، ويحرص على تفقدتهم ومواصلتهم، فلا يغيب أحدهم إلا وتجده مبادراً بالسؤال عنه والاطمئنان عليه وعلى صحته. من أهم الصفات التي تميز الفقيد عباس الزين الهدوء الذي هو صفة تلازمه دوماً، فمن النادر أن تسمعه يتحدث بصوت مرتفع، فحديثه دائماً لمن معه أقرب للهمس منه للجهر. والهدوء صفة تشابه الفقيد عباس الذي هو هادئ النفس دائماً. كما أعتقد أن طبيعة عمله في المكتبة ولفترة طويلة من الزمن قد أكسبته حساسية مرهفة تجاه الهدوء وعدم ازعاج القراء في المكتبة، حيث تتلزم دوماً صفة الهدوء مع قاعات المكتبات التي تسعى لتهيئة الجو المناسب للقراءة والدرس.

أمضى عباس الزين خمسة عقود في جامعة الخرطوم من خلال عمله في مكتبة الجامعة وتحديداً في مكتبة السودان التي أمضى فيها جل سني خدمته بالمكتبة. كان يتسم بالمهنية العالية حيث كان متوازناً بين رغبته في تقديم العون والمساعدة لرواد المكتبة وبين حرصه الشديد على سلامة مقتنيات المكتبة ومجموعاتها، كان بشوشاً ويقدم كل ما هو ممكن لخدمة الرواد، لكن مع الالتزام التام باللوائح والقوانين التي تحفظ مجموعات المكتبة ومقتنياتها من الضياع.

من أهم إسهامات الفقيد عباس الزين الطيب في المكتبة قيادته لفرق العمل التي اشتركت في نقل مجموعات المكتبة من مبناها القديم في مبنى مكتبة الجامعة داخل الحرم الجامعي للمبنى الحالي في شارع الجمهورية. كان عباس الزين من أكثر المتحمسين لنقل المكتبة وذلك لسعة ورعاية المبنى الجديد، وكثيراً ما كان يتساءل عن سبب التأخير وبطء الإجراءات، وكان يستعجل الانتقال للمباني الجديدة، كما كان من أكثر الناشطين في نقل المجموعات، وقد أسهم هو والأستاذ عبد المجيد الصديق وعيسى حسب الله وبقية الشباب من العاملين في المكتبة في نقل الكتب بكل حرص ودقة ومهنية. كان الخوف أن تفقد المكتبة بعضاً من مجموعاتها النادرة، أو يتم وضعها في المكان الخطأ، ولكن الحرص والمتابعة والدقة كانت كفيلة بإكمال المهمة على أفضل وجه.

وقد قامت الفكرة على ترحيل مجموعات في شكل دفعات محددة ومتتالية من الكتب يتم تغليفها وربطها ثم ترقيمها بالتسلسل، وكان على العمال ترحيل الكتب وتنظيمها وفقاً لنظام الترقيم المتسلسل من المكان القديم للمكان الجديد، ونتج عن ذلك نظام فعال في النقل دون إرباك، وكان للفقيه عباس وزملاؤه الفضل في إنجاز عملية الانتقال بسهولة ويسر وسلاسة.

سر تذكر الناس وتعلقهم بعباس الزين:

أعتقد وبشكل جازم أن شخصية عباس الزين المتصالحة مع النفس المحبة للخير الساعية دوماً لمساعدة الغير والسؤال عنهم ومواصلتهم تشكل حجر الزاوية في نجاح الفقيه عباس الزين أن يكسب محبة واحترام الجميع. كنت خلال فترة عملنا معاً ألاحظ أن عباس يمارس عمله اليومي في مكتبة السودان بمحبة وشغف باديين للعيان، فلم تكن المهام التي يؤديها مرتبطة بالأجر والوظيفة، إنما هي مهام يحبها ويملاؤه شغفه بها، لذلك فهو يستمتع بما يقوم به، بغض النظر عن العائد. كان زاده في مواجهة الحياة وقساوتها؛ محبة الناس وكلمة: «شكراً عم عباس»، يسمعه من طالب أو باحث فتطربه كما أطربه ابن عمه الصداح (بادي محمد الطيب)، وتمتعه تلك الكلمات البسيطة كما أمتعته كلمات الحقيبة الراقية التي كان يمارسها هواية للترويح عن نفسه والمجتمع من حوله.

إذا وصف علماء التنمية البشرية والتطوير الذاتي السعادة بأنها (Do what you love, and love what you do)، ويقصدون بها (أن سعادة المرء أن ينخرط المرء فيما يحبه من الأعمال، كما أن على المرء أن يحب ما يعمل) فإن ذلك بالنسبة لي، كان هو سر سعادة الأخ عباس الزين ونجاحه في عمله وصفاء سريره وطلاقة وجهه وبشاشته ودوام ابتسامته في وجه الجميع. فقد أحب عمله بعمق وتعلق به، وكان ذلك الحب دافعاً له ليوصل العمل حتى بعد وصوله للمعاش الإجباري. كان محركه هو شغفه بمساعدة الناس وخدمتهم وإعانتهم فيما يقومون به من دراسة وبحث علمي. وهي حالة تكاد تتشابه مع حالة الصوفي الولهان في حال تعبد وتقرب ممن يحب. هي حالة تنتشله من كل الدنيا، لدنيا أخرى لا يشعر بها إلا من عاش تلك الحالة من الهيام واللذة والشغف. ولذا فقد حق لنا أن نسمي الفقيه عباس الزين الطيب (ساون مكتبة السودان) بلا منازع، فقد أمضى حياته وسني عمره بين أرففها وجناباتها في خدمة روادها من العلماء والباحثين.

كان عباس ملمماً بتفاصيل وخبايا وأسرار مكتبة السودان، وجاء ذلك نتيجة لعمله لفترة طويلة بين هذه المجموعات واهتمامه بها وحرصه عليها، وقضاءه وقتاً طويلاً بين الأرفف معتنياً بالمجموعات وتفقدتها وترتيبها. وكذلك اهتمام عباس بتنمية المجموعات وتطويرها من خلال متابعته الدائمة للإيداع القانوني في المكتبة، ومتابعة دور النشر المختلفة، وتولييه لعمليات الشراء للكتب الصادرة حديثاً. أكسبه كل ذلك معرفة بالمجموعات والكتب والمنشورات الحكومية والتقارير الحكومية، لذلك فقد كان خير معين- بالإضافة لزملائه الآخرين، في تلبية احتياجاتهم وعادة ما يأتي للباحث بعدد من العناوين أكثر مما يتوقع الباحث.

بالرغم من أن مكتبة السودان تعتمد على نظام الأرفف المغلقة والتي لا تسمح لمستخدم المكتبة بالدخول للمكتبة والتجول بين الأرفف بل يعتمد القارئ بشكل حصري على مساعدة العاملين في المكتبة للحصول على ما يريد بعد تحديد ما يطلبه من خلال استخدام فهرس المكتبة. وبالرغم من أن هذا النظام يلقي بالعبء على العاملين، لكثرة طلبات القراء وتنوعها، إلا أن طبيعة مجموعات المكتبة وندرتها تحتم عدم فتح الأرفف لضمان عدم ضياع الكتب وكذلك لضمان إعادة كل كتاب لمكانه الصحيح، حيث يتم الترفيه بواسطة العاملين في المكتبة بشكل يومي حتى يتم التأكد من عودة كل كتاب لموقعه. بالرغم من كثرة الطلبات التي يليها العاملون في المكتبة، وعلى رأسهم الأخ الفقيه عباس الزين، إلا أنهم أثبتوا وعبر السنوات الطويلة كفاءة عالية ومقدرة واضحة في التعامل مع احتياجات القراء والباحثين. كان لنظام الأرفف المغلقة دور في تعريف العاملين بالمكتبة على مواقع المجموعات وأنواعها.

كان الفقيه عباس الزين وهو أحد أقدم العاملين ورفيقه الأستاذ عيسى حسب الله وبقيّة الطاقم العامل بالمكتبة. كان الفقيه عباس الزين بما يميزه من معرفة دقيقة بمجموعات المكتبة بمثابة (الفهرس الآلي للمكتبة) في ظل غياب الفهارس الآلية آنذاك، ويمكن أن نسميه بلغة اليوم (جوجل مكتبة السودان) بسبب قدرته على التعامل مع أسئلة واستفسارات الباحثين الخاصة بتوفر مصادر المعلومات ذات العلاقة بموضوعاتهم البحثية.

ما كان يقوم به عباس الزين بلغة اليوم هو عمل (أخصائي المراجع) أو ما يعرف باللغة الإنجليزية (Reference Librarian)، حيث كان هو المراجع الرئيس لكثير من الباحثين والأساتذة وطلاب الدراسات العليا.

كان عباس الزين استباقياً في تلبية احتياجات رواد المكتبة من الطلاب والأساتذة، حيث كانت تردنا بعض القوائم من بعض دور النشر أو ترشيحات بكتب ليتم شراءها للمكتبة، كل ما وقع نظر الأستاذ عباس في كتاب، يذكر باحثاً مهتماً بالموضوع ويرجونا أن نسرع في إجراءات شراء الكتاب ليلبي احتياجات الطالب من المعرفة. وهو بذلك يطبق بعضاً من قوانين رانغاسن في المكتبات والتي منها أن لكل كتاب قارئ ولكل قارئ كتاب.

كانت معرفة عباس الزين الجيدة بالمجموعات ومحبه لعون الطلاب والباحثين تجعله حريصاً على إبراز مكنونات المكتبة وثمان صيدها من مصادر المعلومات والمعارف، تحدثه عن بحثك واحتياجاتك، فتجده ملماً بما لم تعرفه أنت المتخصص فيأتيك بالكتب والرسائل والمقالات وغيرها من المفيد والمعين على استكمال البحث على أحسن وجه. يقوم بذلك برحابة صدر ومحبة نادرة، كان ذلك شأنه مع من يعرف أو من يأتيه لأول مرة، فهو سادن العلم والمعرفة. مما يجعل الباحث والطالب متعجباً سعيداً يردد بيت الشعر (مع تبديل بسيط) ويأتيك (بالأسفار) ما لم تزود. وفي المقابل ظل رواد المكتبة من طلاب وباحثين وأساتذة من داخل وخارج السودان يشعرون بالامتنان والشكر للعون الكبير الذي يقدمه لهم الفقيد عباس الزين خلال دراستهم، لذا فإننا نجد عدد كبيراً من الباحثين وطلاب الدراسات العليا وبعض المؤلفين السودانيين والعرب والأجانب قد أفردوا حيزاً من (الشكر والعرفان) ضمن كتبهم ورسالتهم للتعبير عن شكرهم وامتنانهم للفقيد عباس الزين وذكره بالاسم، ضمن من يتوجب شكرهم وذكرهم، وما ذلك إلا لتفاني الفقيد في خدمتهم وعونهم. وعند رحيله افتقده كل المجتمع العلمي في جامعة الخرطوم والجامعات السودانية الأخرى، وتبادل العلماء الخير الحزين بانتقاله للدار الآخرة، وصلوا عليه وأكثروا له الدعاء من قريب وبعيد. ونعاه عدد كبير من محبيه وعارفي فضله، فقد نعاه البروفيسور أحمد إبراهيم أبوشوك، والدكتور عبد اللطيف البوني، وغيرهما من الكتاب والصحفيين الذين عرفوه.

خاتمة:

مثل الأخ الفقيد عباس الزين الطيب نموذجاً فريداً للموظف المحب لعمله المتفاني فيه والذي يجود الأداء محبة في وظيفته وعوناً لرواد المكتبة من الطلاب والأساتذة الباحثين، ونحن إذ نكتب هذه الأسطر القليلة في حقه فإننا

نقرأ بقصر قامات كلماتنا أن تفي الرجل حقه، وأن تصل لمقامه، ولكنني حين قبلت التكليف بالكتابة عن مسيرة الأخ عباس لم أقبل لأنني الأجدر بذلك ولا لأنني الأقدر على ذلك، بل قبلته محبة مني لأخ وصديق عزيز عرفته عن قرب وعملنا معاً في زمن جميل، وتعلمت منه معاني حب الآخرين وعونهم ومساعدتهم، فكان القرار أن أكتب ما يجيء في خاطري لأنها فرصة لن تتكرر للتعبير عن محبتنا للفقيه عباس الزين الطيب، واعترافاً له بالجميل وتقديراً لما ظل يقوم به لأكثر من خمسين عاماً في خدمة العلم والعلماء والباحثين، بحب وشغف وتفاني. ونختتم هذا الحديث بشكر القائمين على هذه المبادرة الكريمة لرفع ذكر رجل كريم، ونسأل الله أن يجزي الأخ عباس الزين خير الجزاء وأن يرفعه مكاناً علياً بين الصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقاً، وأن يجعل كل ما قدمه لطلاب العلم والباحثين صدقة جارية ينتفع بأجرها ليوم الدين.

الهوامش:

- (1) قاسم عثمان نور، مكتبة السودان بجامعة الخرطوم، عمود أوراق وأقلام، صحيفة آخر لحظة السودانية، تاريخ النشر: الأحد، 7 فبراير 2010.
- (2) محمد صلاح الدين محمد، دور مكتبة السودان في حفظ التراث الفكري السوداني، مجلة الثقافة السودانية - مجلة فصلية محكمة تصدر عن الهيئة القومية للثقافة والفنون، الخرطوم، العدد 32/33 (مزدوج)، 1997م ص 79-87.
- (3) عمر الزين الطيب، حوار عبر الواتساب حول حياة الفقيد عباس الزين خلال شهر ديسمبر 2021.